الفصل السادس

السلفية والعلمانية (تحليل الشعارات)

١- السلفية والعلمانية

تظهر فى فكرنا العربى المعاصر عدة معارك زائفة وثنائيات مصطنعة مثل السلفية والعلمانية، الدين والدولة، الدين والعلم، الدين والفلسفة، الأصالة والمعاصرة، القديم والجديد، الإيمان والإلحاد، الدين والعقل، الله والطبيعة، الله والإنسان، النفس والبدن، الآخرة والدنيا، الرجل والمرأة.. الخ. وتوحى هذه الثنائيات بتناقض أطرافها واستحالة الجمع بينهما لأنهما على طرفى نقيض بمنطق "إما... أو". وتنقسم الأمة إلى فريقين متصارعين كل فريق فى صف طرف ضد الفريق الآخر الذى فى الطرف الثانى. وتنقسم الثقافة الوطنية إلى قسمين متصارعين، يدمر أحدهما الآخر ويقضى عليه. فينتهى الإبداع، ويعم النقل. ويتوقف الحوار، ويسود التعصب.

والحقيقة أن هذه المعارك الزائفة قد نشأت فى الغرب وتجربته فى الحداثة. فبعد أن اكتشف الغرب فى مطلع عصوره الحديثة منذ الإصلاح الدينى وعصر النهضة استحالة الجمع بين الكنيسة والدولة، بين الدين والعقل، بين الإيمان والعلم، بين أرسطو والطبيعة آثر استبعاد القديم واستبقاء الجديد، وترك الكنيسة والدين والإيمان وأرسطو وبطليموس، والاعتماد على العقل والعلم والطبيعة وقدرة الإنسان على الفهم والنقد والتحليل. فنشأ فى الوعى الأوربى هذا الصراع بين القديم والجديد، وتربى على هذه الثنائيات المتعارضة.

ومنذ ريادة أوربا فى عصورها الحديثة، وتحولها إلى مركز للعالم، وانتشار ثقافتها منذ القرن الماضى خارج حدوها مصاحبة للمد الاستعمارى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، انتشرت هذه الثنائيات خارج حدودها، وعمت الثقافات الوطنية فى الأطراف، ومنها الوطن العربى. فنشأ لدينا ومنذ فجر النهضة العربية فى القرن الماضى هذا الرافد الجديد فى الثقافة العربية. وبدأ التقابل بين الموروث والوافد فى الظهور على نفس النمط الغربى خاصة فى التيار العلمى العلمانى عند شبلى شميل،

البيان ١٩٩٦/٤/٨.

وفرح انطون، وسلامة موسى، وإسماعيل مظهر، وزكى نجيب محمود، وفؤاد زكريا. وكلما زاد العداء للموروث انتشر النمط الغربى الذائع خارج الحدود. وكلما أراد المثقفون إدارة المعارك تبنوا هذه الثنائيات الوافدة. فشقت الثقافة الوطنية إلى شقين متعارضين ثم إلى قتال بين الإخوة الأعداء مازال دائرا حتى الآن.

وقد حدث هذا الفصام فى الثقافة الوطنية فى لحظة تاريخية توقف فيها الإبداع، وعم فيها التقليد والاتباع. فلا فرق بين النقل من القدماء لملأ الفراغ أو النقل من المحدثين. فضل البعض النقل عن القدماء لعجزهم عن الإبداع وتوقفهم عن الاجتهاد. فتراكم القديم فوق واقع لا يتلائم معه، ويتطلب حلولا أخرى غير التى صاغها القدماء. فدفع ذلك البعض الآخر إلى أن يولى وجهه شطر الحلول الجاهزة الوافدة من الغرب، فتراكمت بعضها فوق البعض. وأصبح الواقع يئن تحت الموروث والوافد. وكلاهما نقل. فاذا انتفض الواقع باسم الحاضر تهاوى الموروث والوافد معا كما حدث إبان الثورات العربية الأخيرة التى بدأت من الواقع الوطنى من أجل التحرر من الاستعمار الخارجى والقهر الداخلى والقضاء على الفقر والتخلف والتجزئة والتبعية دفاعا عن استقلال الإرادة الوطنية.

ولما ضعفت الدولة الوطنية التى تعبر عن الواقع وإبداعاته، وهى بمثابة القلب للجناحين، الموروث والوافد، أنصار القديم وأنصار الغرب، السلفية والعلمانية اشتد الصراع بين الإخوة الأعداء، واحتدم الخلاف حتى وصل إلى حد الاقتتال وسفك الدماء فى مصر والجزائر وسوريا. كل جناح يريد أن يكون وريث القلب الذى كاد أن يتوقف عن الحياة والنبض. فإذا ما قوى القلب، ودبت فيه الحياة من جديد، وشعر بخطورة الوريثين، السلفية والعلمانية، ضرب أحدهما بالآخر لاضعافهما معا، ضرب السلفية بالعلمانية كما كان الحال فى العهد الناصرى، ثم ضرب العلمانية بالسلفية كما هو الحال فى عصر السادات. والآن يتم ضرب السلفية

بالعلمانية فى الجمهورية الثالثة كما كان الحال فى الجمهورية الأولى فى مصر باسم التنوير فى مواجهة الإظلام ومن خلال الإعلام والثقافة.

الصراع بين السلفية والعلمانية ليس فقط صراعا بين مصدرين للمعرفة، الموروث والوافد، بل هو أيضا صراع على السلطة، كل منهما يشعر بأنه الوريث الطبيعى للدولة الرخوة. الكل يريد الحكم، الدولة الوطنية أو ما تبقى منها: أنصار السلفية اعتمادا على الشرعية الموروثة، وأنصار العلمانية استدعاء لشرعية الحداثة والعصر. فلا حل إلا بالسلطة، والسلطة هى الحل، وإن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن.

والحقيقة أن لكل من السلفية والعلمانية جانبين: إيجابى وسلبى. ويختلط المعنيان فى الثقافة العربية على التبادل. فالهجوم على السلفية نظرا لمعناها السلبى، والدفاع عنها لمعناها الإيجابى. والهجوم على العلمانية نظرا لمعناها السلبى، والدفاع عنها لمعناها الإيجابى.

فالسلفية إيجابا تعنى الأصالة ضد التغريب، وأولوية الأنا على الآخر، والدفاع عن النفس ضد المخاطر التى تهددها. وهو شئ طبيعى فى مرحلة التحرر من الاستعمار. وقد كانت حركات التحرر الوطنى كلها دفاعا عن الهوية فى الجزائر والمغرب وتونس وليبيا ومصر ولبنان. كما تعنى أن القديم مازال حيا فى النفوس، وأن الموروث هو المكوّن الرئيسى فى الثقافة الوطنية، وأن التواصل مع القديم خير من الانقطاع عنه بل إنه من المستحيل الانقطاع عنه نظرا لطابع المجتمعات التقليدية، وأن نموذج التواصل كما عبر عنه الاجتهاد وتواصل مراحل الوحى، خروج المسيحية من اليهودية، والإسلام من المسيحية واليهودية، لا يقل إبداعا عن نموذج الانقطاع فى الغرب ونموذج التجاور فى الشرق، فى اليابان وكوريا خاصة. كما أن السلفية رد فعل مشروع ضد التغريب والتبعية الثقافية للغرب، وناقوس الخطر على خطورة النقل، سواء من المحدثين أو من القدماء.

والسلفية سلبا تعنى الموروث الدينى الفقهى الذى ضم العلوم الدينية أساسا بينما الواقع ينادى على علوم الدنيا ويتطلبها. تعنى العقائد والشعائر والواقع يتطلب الإيديولوجيات والمذاهب السياسية والأعمال الوطنية وبرامج التنمية الاجتماعية. كما تعنى المحافظة والتقليد كما بدت لدى الأشاعرة قديما وإعطاء الأولوية للإرادة الإلهية على الإرادة الإنسانية وقوانين الطبيعة، وجعل النقل أساس العقل، وحصر الإمامة فى قريش، وتأجيل العمل على الإيمان. تعنى السلفية الكتب الصفراء والثقافة العتيقة التى لا تتفق مع متطلبات العصر، الشيخ فى مقابل الأفندى، والعمة فى مقابل القبعة، والجامعة الأزهرية فى مقابل الجامعة الوطنية بالرغم من محاولات تجاوز هذه الثنائيات فى الفكر العربى الحديث، تطويرا للأزهر أو تأسيسا لدار العلوم كما حاولت الحركة الإصلاحية منذ الأفغانى وكما حاول الفكر الليبرالى الحديث منذ الطهاوى وخير الدين.

والعلمانية إيجابا تعنى العلم وتطبيقاته فى التقنية، والبداية بالطبيعة والعالم والكون لمعرفة قوانينه وسبر أغواره اعتمادا على العقل الإنسانى وقدراته المعرفية الخالصة والحواس والتجارب، والتصديق والمراجعة والمقاييس الكمية الدقيقة. كما تعنى حقوق الإنسان فى الحرية، حرية الإيمان والتفكير والتعبير والانتقال، واختياره النظام السياسى بناء على عقد اجتماعى وليس حكما إلهيا. فالإنسان مواطن فى مجتمع وليس عضوا فى كنيسة أو مملوكا لسيد أو رعية لراعى أو قنًا لإقطاعى أو عاملا لرأسمالى. والتقدم هو جوهر الكون وقانون الحياة. فالحاضر أفضل من الماضى، والمستقبل أغنى من الحاضر. تعنى العلمانية الجديد ضد القديم، والتوجه نحو المستقبل ضد التوجه نحو الماضى. لقد جربتها الشعوب وأفلحت فلماذا لا يجربها العرب بدلا من أن يبدأوا من الصفر دون التعلم من تجارب الآخرين، والثقافة واحدة، والعلم واحد بين الشعوب.

وتعنى العلمانية سلبا التبعية للغرب، وتبنى نمطه للتحديث، والمساهمة فى ازدياد التغريب، والعداء للموروث، والدعوة إلى الانقطاع عنه. فالعلمانيون يدينون

بالولاء للغرب، ووكلاء حضاريين له، نخبة مثقفة، أقلية تحكم الأغلبية، بعضهم من النصارى كما كان الحال فى فجر النهضة العربية فى القرن الماضى. تعنى العلمانية المادية الغربية لافرق فى ذلك بين الرأسمالية والشيوعية. ويتبع المادية الإلحاد، إنكار الله والنبوة والوحى. ويتبع الإلحاد النسبية والعدمية والشك واللاأدرية والفوضوية والانحلال. لذلك هاجمها الأفغانى فى "الرد على الدهريين".

والحقيقة أن هذه المشكلة الزائفة قد أضرت بالثقافة الوطنية وبالوحدة الوطنية، وبسببها تصادمت شرعيتان، شرعية الماضى وشرعية الحاضر، شرعية الدين وشرعية الثورة. والفكر الابداعى الوطنى يوحّد بين الشرعيتين اللذين يكوّنان أساس الوجود العربى.

وقد توحدت هاتان الشرعيتان فى القرآن الكريم فى الجمع بين الدين والدنيا، بين مقتضيات النفس وضرورات البدن، بين حقوق الله وحقوق الإنسان. وقد ظهر هذا التوحيد فى مقاصد الشريعة كما عرضها علم أصول الفقه، وهى المصالح العامة التى تقوم عليها الشريعة. فالشريعة الإسلامية شريعة وضعية تقوم على رعاية المصالح العامة، وتتأسس فى واقع الناس وحياتهم. ولفظ الوضع ليس حكرا على العلمانيين وحدهم ولا لفظ العقد الاجتماعى ولا ألفاظ العقل والعلم والطبيعة والتقدم والإنسان والحقوق والواجبات والمواطنة. ومقاصد الشريعة الخمس هى الدفاع عن الحياة (النفس)، والعقل، والدين (الحقيقة)، والعرض (الكرامة)، والمال (الثروة). وعلى هذه المقاصد والدفاع عنها لافرق بين السلفية والعلمانية. والإمامة عقد وبيعة واختيار وليست حكما إلهيا أو اختيارا ربانيا. فالإمام يمثل الأمة ولا يمثل الله. وعلى هذا الأساس لافرق بين السلفية والعلمانية.

وقد أكد الفكر الإسلامى القديم ذلك، فعند المعتزلة العقل أساس النقل، والطبيعة لها قوانينها المستقلة، والعدل مع التوحيد أصلان من أصول الدين، والإنسان صاحب أفعاله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والرقابة على

الحكام واجب العلماء. ولا فرق في ذلك بين السلفية والعلمانية. وقد أكد الفلاسفة ما أكده المعتزلة من قبل، فالعقل والوحي متفقان فى الهدف والغاية، ولا فرق بين الدين والفلسفة، بين الوحي والعقل. وأكد الصوفية الوحدة بين النظام الإلهى والنظام الكوني، وتجليات الله فى الكون، والطبيعة باعتبارها دلالة على وجود الله. وخرجت العلوم الرياضية والطبيعية والإنسانية من ثنايا الوحى وعقلية التوحيد.

ويقوم الإسلام على التعددية، والاجتهاد، فاللمخطئ أجر وللمصيب أجران، وعلى التعبير الحر، فالكل راد والكل مردود عليه، والحق النظرى متعدد وإن كان الحق العملى واحدا. فأى خلاف بين السلفية والعلمانية على قيم التعددية، وحرية الرأى، والديموقراطية، والحداثة، والعصرية، والاجتهاد، والعقل، والعلم، وحقوق الإنسان والشعوب؟ هل من المستحيل تكوين جبهة وطنية واحدة يلتقى فيها السلفيون والعلمانيون، والاتفاق على برنامج عمل وطنى موحد، يحقق مطالب الأمة، ويحرص على وحدتها الوطنية؟ هل من الصعب تطهير الثقافة العربية من المشكلات الزائفة والتوجه إلى مواطن الإبداع الثقافى العربى؟

٢- الشعارات السلفية

إذا كان هدف الثقافة العربية الآن هو توحيد الجهود، ولم الشمل، وتجميع القوى الوطنية من أجل درأ الأخطار المحيطة بالأمة، أخطار التجزئة والقطرية وانحسار القومية والدخول فى أحلاف بديلة عن التضامن العربى، حلف العرب مع أنفسهم، فان المهمة الآن هى توحيد الجهود بين السلفيين والعلمانيين من أجل خلق حوار وطنى بين أهم جناحين فى عقل الأمة ووجدانها حول الدولة الوطنية التى هى بمثابة القلب. ويمكن ذلك عن طريق تحليل شعارات كل تيار لمعرفة إلى أى حد يمكن توحيد الثقافة الوطنية فيما وراء اللغة والقصد المعلن والقصد غير المعلن، المنطوق به والمسكوت عنه.

والشعار يعبر عن بناء نفسى واجتماعى فى صياغة لغوية. ومعناه ليس فى العبارة بل فيما وراء العبارة من مضمون نفسى يعبر عن واقع اجتماعى وسياسى واقتصادى وقانونى وتاريخى. الشعار موقف وليس مجرد معنى، حركة واقع وليس مجرد تصور أو رؤية، تجنيد للجماهير وليس فقط صياغة مقولة وإصدار حكم. الشعار شحنة وجدانية للرفض والقبول، إعلان عن حركة للهدم والبناء، بيان للناس حول حاضرهم ومستقبلهم.

وأهم الشعارات السلفية ثلاثة: "الحاكمية لله" و "الإسلام هو الحل" أو "الإسلام هو البديل" و "تطبيق الشريعة الإسلامية". فماذا تعنى هذه الشعارات التى ترفعها الحركة الإسلامية عن حق وتلقى نجاحا كبيرا فى أوساط الإسلاميين، من الجمهور والنخبة على حد سواء؟

يعنى شعار "الحاكمية لله" رفض حاكمية البشر. فالشعار يعنى سلبا رفض نظم الحكم القائمة، وراثية أو عسكرية، ملكية أو جمهورية، بنص القرآن ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ (٥ : ٤٤). وقد تكررت الآية عدة مرات،

البيان ١٥/٤/١٩٩٦.

تصف من يحكمون بغير ما أنزل الله مرة بالكافرين، ومرة بالفاسقين، ومرة بالظالمين. فالشعار يتضمن شحنة من الغضب ضد نظم الحكم القائمة لتقويضها. فالحكم لله، والسيادة لله، والله أدرى بمصالح البشر منهم بأنفسهم.

يدل الشعار سلبا على ضيق بنظم الحكم القائمة ورفض لها بدعوى أنها حكم البشر واعتمادا على فتوى ابن تيمية بفساد حكم التتار الذين لا يحكمون بالشريعة التى أنزل الله حتى ولو أعلنوا الشهادتين. كما كرر ذلك أبو الأعلا المودودى فى الهند من أجل المفاصلة بين المسلمين والهندوس، وإعطاء المسلمين شرعية وجود منفصل عن مجموع الهنود الذين لا يحكمون بما أنزل الله. وعبر عن ذلك فى كتيبه "المصطلحات الأربعة فى القرآن الكريم" وهى: الحاكمية، والألوهية، والربانية، والعبودية. وهى تعبر عن مأساة المسلمين فى الهند وضرورة تحررهم من حكم الهندوس، حكم البشر، إلى حكم الإسلام، حكم الله.

وكرر ذلك سيد قطب مرة ثالثة فى "معالم فى الطريق". يجعل الحكم الإسلامى قائما على الحاكمية لله ضد حكم البشر، ولا مصالحة بين الله والطاغوت، بين الإسلام والجاهلية، بين الإيمان والكفر، نظرا لما ألم به من تعذيب واضطهاد فى السجون هو وجماعة الإخوان المسلمين فى العهد الناصرى، بصرف النظر من المخطئ ومن المصيب.

الحاكمية لله إذن شعار يعبر عن حالة نفسية من الاضطهاد، ويحتوى على قوة هائلة من الرفض للوضع القائم. قوته فى سلبه، وخطورته فى هدمه كل شئ من أجل إعادة البناء من جديد، من الألف إلى الياء، البداية بالصفر للوصول إلى كل شئ. يقوم الشعار على إدانة الواقع، ورفض كل شئ فيه. فالإسلام لا يعرف "الترقيع" إما إسلام أو لا إسلام.

والحقيقة أن الإسلام يبدأ مما هو موجود. فليس كل ما فى الواقع كفراً وجهالة. الإسلام يبدأ من الواقع، ويقر الفطرة، ويؤيد حكم العقل، ويتأسس على

المصلحة. ويستطيع البشر بفطرتهم الوصول إليه. الإسلام يطور ما هو موجود، يطور شعائر إبراهيم، وينقح اليهودية، ويصلح مسار المسيحية، ويهذب الجاهلية ويطهر العروبة.

كما أن الحاكمية لله تعنى إيجابا ليس مجرد الرفض لحاكمية البشر، بل حاكمية من يختاره الناس كى يرعى مصالحهم. فالله لا يحكم بذاته ولكن من خلال الأمة وأهل الحل والعقد. الإمامة، كما يقول الأصوليون، عقد وبيعة واختيار. والإمام نائب عن الأمة وليس نائبا عن الله.

وعلى هذا النحو يقترب شعار الحاكمية لله. بهذا المعنى الإيجابى من الشعارات العلمانية مثل الحرية والديموقراطية والاختيار الحر. وينتهى هذا التضاد بين "الثيوقراطية" و "الديموقراطية" الموروث من التجربة الغربية. فالحاكمية لله عندنا تعنى حاكمية البشر الذين تختارهم الأمة لتطبيق الشريعة ورعاية مصالحها.

والشعار الثانى "الإسلام هو الحل" أو "الإسلام هو البديل" يعنى أيضا السلب أكثر مما يعنى الإيجاب. يعنى أن الحلول المطروحة على الأمة وما زالت كنظم سياسية واقتصادية لم تحل مشاكلها بل زادتها تفاقما وصعوبة. فمزيد من الأراضى تم احتلالها فى فلسطين. احتلت فلسطين فى ١٩٤٨ أثناء النظم الملكية الدستورية أو الليبرالية الغربية. ثم احتلت فلسطين كلها فى ١٩٦٧ أثناء النظم العربية باسم القومية العربية أو الاشتراكية العربية. وضاعت حريات المواطنين، واغتيل زعماؤهم أثناء الحكم الليبرالى قبل الثورات العربية الأخيرة، واضطهدت الأحزاب الحاكمة قوى المعارضة باسم القانون والدستور. وظل اضطهاد الإخوان والشيوعيين قبل الثورات العربية الأخيرة وبعدها. واشتدت أزمة الحرية والديموقراطية بعد الثورات العربية باسم الثورة الاجتماعية دفاعا عن تحقيق المكاسب الشعبية. وكان التفاوت بين الأغنياء والفقراء شاسعا فى النصف الأول من هذا القرن فى النظم الليبرالية والإقطاعية والرأسمالية. ثم عادت الرأسمالية فى عصر الانفتاح والخصخصة، وازداد الأغنياء غنى، والفقراء فقرا. وارتفعت

الأسعار ولم ترتفع الأجور على نفس الوتيرة. وتراكمت الديون. وتفاقمت مشاكل الإسكان والمواصلات والبطالة. وما زالت الأمية متفشية فى أكثر من نصف الأمة. أما بالنسبة للتنمية، فمازال الوطن العربى يعتمد فى أكثر من ٧٠٪ من غذائه على الخارج. يستورد الغذاء والسلاح والتقنية والخبرة بالرغم من فوائض الأموال وتوفر الخبرات والعمالة المحلية. مازال الوطن العربى مصنفا ضمن الدول النامية بكل مشاكلها. ومازالت قضية الهوية مطروحة كلما ازدادت درجة التغريب فى مرحلة اقتصاديات السوق والإعلانات والاستيراد للمنتجات وللقيم. والجماهير ساكنة لا تتحرك باستثناء بعض الهبات الشعبية هنا وهناك من أجل الخبز أو مقاومة النقابات والاتحادات دفاعا عن استقلالها.

فما الحل؟ جرب العرب الليبرالية قبل الثورات العربية الأخيرة، والقومية العربية بعدها. كما جربوا الماركسية فى جنوب اليمن قبل الوحدة وفى إطار من التحالف الوطنى فى سوريا والعراق. والمشاكل تزداد تفاقما، والمواطن يزداد بؤسا. هنا يأتى شعار "الإسلام هو الحل" أو "الإسلام هو البديل" ليجد أذانا صاغية عند الناس. لقد تم تجريب كل الإيديولوجيات العلمانية للتحديث، ولم يتم تجريب الإسلام بعد. فلماذا لا يكون هو الحل؟

يعنى الشعار سلبا رفض الإيديولوجيات والمذاهب السياسية الحديثة التى جربها الوطن العربى فى القرنين الأخيرين. فإذا ما أصبح السؤال إيجابا بعد السلب، وما هو النظام السياسى الاقتصادى الاجتماعى النابع من الإسلام الذى يكون هو الحل أو البديل استعصت الإجابة إلا من رؤية هنا أو هناك تعود من جديد إلى المذاهب الاقتصادية والسياسية العلمانية. ويتساءل الناس هل الإسلام رأسمالى أو اشتراكى؟ اقتصاد سوق أو اقتصاد موّجه؟ تجارة حرة أم تخطيط مركزى؟ ولاية الفقيه أم الشورى؟ حكم رجال الدين أم أهل الاختصاص؟ فمازال الشعار إيجابا لا يعنى الكثير وإن كان سلبا به قدر كبير من رفض ما هو قائم عن حق نظرا لضيق الناس وضنكهم.

فلو كان الإسلام هو الحل والبديل يعنى حل الأزمات الضخمة فى الوطن العربى، احتلال الأرض، وقهر المواطن، وفقر الفقراء، وتجزئه الأمة، وتبعيتها على الغير، وتغريبها وسلبيتها فكيف يكون ذلك؟ إذا كان الشعار يعنى إيجابا تحرير الأرض كما تفعل حماس والجهاد فى فلسطين، وحرية المواطن كما يفعل حزب العمل في مصر، والعدالة الاجتماعية كما يريد الناصريون، ووحدة الأمة كما يريد القوميون، والتنمية المستقلة، والدفاع عن الهوية، وتجنيد الجماهير فما الفرق بين المضمون الإيجابى للشعار السلفى وبين الشعارات العلمانية التى يرفعها الليبراليون والناصريون والقوميون والماركسيون؟

والشعار الثالث "تطبيق الشريعة الإسلامية" يعنى سلبا أيضا رفض القوانين السائدة والضيق بها. فهى قوانين تضر بمصالح الناس، قوانين العمل والأجور والإسكان والضرائب والمعاشات والاستيراد والتصدير والتعليم والصحة. تضاربت وتكاثرت وتناقضت وتبدلت طبقا لأهواء الحكام وأصحاب المصالح وجماعات الضغط. لذلك تربت لدى المواطن ملكة التحايل على القانون والالتفاف حوله وتأويله وتفريغه من مضمونه حتى تتحقق مصالحه ضد القانون وعلى الرغم منه. وأصبحت البيروقراطية والتعقيد سمة عامة فى الحياة اليومية.

يعنى شعار "تطبيق الشريعة الإسلامية" الهروب من القوانين السائدة وإيجاد ملاذ آخر لتحقيق العدل وتجنب الظلم. فإذا ظلمت قوانين البشر فإن الشريعة الإلهية لا تظلم.

وتسمى القوانين السائدة القوانين الوضعية فى حين أن الشريعة الإسلامية أحق بلفظ "الوضع" كما قال الشاطبى فى "الموافقات" أى إنها تتأسس فى العالم، وتقوم على المصلحة والدفاع عن الضروريات الخمس: الحياة (النفس)، والعقل، والدين، والعرض، والمال. فبهذا المعنى الإيجابى لا فرق بين الشريعة الإسلامية والقانون المدنى إذ يقوم كلاهما على تحقيق المصالح. المصلحة أساس التشريع، وهى أساس القانون الطبيعى والعقد الاجتماعى. لايعنى القانون الوضعى الخضوع

لأهواء البشر بل يعنى قيام شريعة موضوعية لاتنحاز ولا تحابى، وتدافع عن المصالح العامة للجميع. فما الخلاف إذن بين شعار السلفية والقوانين الوضعية والمدنية؟

وقد يعنى شعار تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيق الحدود أى قانون العقوبات تخويفا للناس من الجماعات الإسلامية ومن النظم الحاكمة على حد سواء ما دام المقصود بالشريعة الردع والعقاب والزجر والضبط. والحقيقة أن الشريعة الإسلامية كل لايتجزأ. تعطى الناس حقوقهم قبل أن تطالبهم بواجباتهم. وحقوق المواطن إشباع حاجاته الأساسية وحقوقه الطبيعية فى الغذاء والكساء والتعليم والصحة والانتقال والسكن. فإذا سرق بعد ذلك يطبق الحد. وحقوق المواطن الشاب الزواج المبكر وتوفير السبل إلى ذلك بعد المغالاة فى المهور، وتوفير السكن الملائم والحياة الأخلاقية فى مظاهر الحياة العامة بعيدا عن الإثارات للغرائز فى أجهزة الإعلام. فإذا أخطأ بعد ذلك يُطبق عليه الحد. فالحدود تأتى فى النهاية وليس فى البداية، كواجبات تقابلها حقوق. وتوفير الحاجات الأساسية هو ما تنادى به العلمانية فتبدو أكثر رحمة بالناس من توقيع العقوبات وتطبيق الحدود.

هناك إذن مساحة للالتقاء بين الشعارات السلفية والأهداف العامة التى تحاول الإيديولوجيات والمذاهب العلمانية تحقيقها. إنما يتطلب الأمر تحليل الشعارات والمقاصد واللجوء إلى الأسس النفسية والاجتماعية للشعارات والأهداف والمقاصد الإنسانية العامة اعتمادا على العقل والفطرة والمصلحة. فإذا تم التقارب الفكرى ربما يكون ذلك خطوة نحو المصالحة الوطنية.

٣- الشعارات العلمانية(١)

كما أن الشعارات السلفية لها مضمون نفسى واجتماعى وسياسى، وتعبر عن أزمة اجتماعية حقيقية، وتكشف عن رفض للواقع، وضيق بالنظم القانونية التى يئن تحتها المواطن، وتعبر عن السلب أكثر ما تعبر عن الإيجاب فإن الشعارات العلمانية مثل العقل، والعلم، والحرية، والإنسان، والمجتمع، والتقدم تكشف عن رغبات دفينة وحاجات فعلية وتمنيات حقيقية للوجدان العربى.

والسؤال هو: هل هذه الشعارات العلمانية غريبة على الثقافة العربية والتراث الإسلامى الذى يشكل الرافد الأساسى فيها أم أنها تعبر عن مضمون الثقافة العربية سواء بألفاظها أو بألفاظ أخرى بديلة؟

فشعار "العقل" أو "العقلانية" أو "التنوير" يعبر عن لب الثقافة العربية والتراث الإسلامى. فقد ذكر العقل بكل مشتقاته الإسمية والفعلية فى القرآن الكريم حوالى ٤٩ مرة، عقل الكلام والأفعال، وفهم الوقائع، والوعى بالمصير، والتدبر بالإرادة، وتأويل الأمثال، والتأمل فى الطبيعة لمعرفة قوانينها، وسبر أغوار المجتمع لمعرفة مكوناته. ويستهجن القرآن من لا يُعمل عقله فى عدة صياغات هى أوسع الاستعمالات انتشارا مثل ﴿أفلا تعقلون﴾، ﴿لعلكم تعقلون﴾، ﴿إن كنتم تعقلون﴾، ﴿أفلم تعقلون﴾. وهناك ألفاظ أخرى مثل البرهان، والعلم، واليقين، والتفكر، والتدبر، وكلها تحيل إلى معانى العقل. وهو العقل النظرى العملى، المنطقى الأخلاقى وليس العقل الصورى الذى غلب على الفلسفة الغربية والذى انفصل عن القيمة بدعوى الموضوعية والحياد، فاصلا بين أحكام الواقع وأحكام القيمة.

وظهر الإعلاء من قيمة العقل فى الحديث النبوى وفى إحساس العرب بأنه لايوجد أمر فى الدين نهى عنه العقل، ولا يوجد نهى فى الدين أمر به العقل.

---

(١) البيان ٢٢/٤/١٩٩٦.

والعرب أهل الفطرة والفصاحة. ويروى الصوفية حديثا قدسيا "أول ما خلق الله خلق العقل، فقال له أقبل فأقبل، أدبر فأدبر. وعزتى وجلالى ما خلقت أعز منك". فالعقل أول ما خلق الله، يستجيب للأوامر لافرق بين طاعة العقل وطاعة الوحى.

وقد أكد علماء أصول الدين وفى مقدمتهم المعتزلة على دور العقل وجعله أصلا من أصولهم الخمسة فى التوحيد والعدل، العقل أساس النقل. والواجبات العقلية مثل الخلق، والتكليف، وشكر المنعم. والنظر أول الواجبات حتى قبل الإيمان لأن الإيمان لا يُعرف إلا بالنظر، وأن إيمان المقلد لا يجوز، وأن العقل قادر على إيجاد البراهين على وجود الله، ذاتا وصفاتا وأفعالا، تنزيها وكمالا، وقادر على إثبات خلق العالم، وقادر على إثبات خلود النفس وقانون الاستحقاق طبقا للجزاء على قدر الأعمال.

وقد أكد الفلاسفة أيضا نفس الشئ؛ فالعقل والوعى طريقان متفقان فى الغاية، معرفة الحقيقة، والكمال الخلقى. ويستطيع الفيلسوف بالعقل أن يصل إلى كل الحقائق التى يصل إليها النبى بالوحى. الحقيقة أخت الشريعة كما يقول ابن رشد، متفقتان بالطبع، متحابتان بالجوهر والغريزة. ويستطيع العقل أن يتصل بمصدر الحقيقة وأن ينال منه العلم دون خيالات وأمثال، إدراكا مباشرا للحقائق والماهيات.

بل إن الصوفية الذين يعتمدون على منهج الذوق والكشف والرؤية العيانية المباشرة يصنعون منطقا للإشراق كما فعل السهروردى، تصورات وقضايا، تصديقات وأحكاما. كما وصل ابن سبعين إلى نوع من الفلسفة الإلهية يضعها العقل ويؤكدها الكشف. فلا فرق بين الحدس والبرهان، بين الرؤية والاستدلال، بين العيان والنظر.

أما الفقهاء فإنهم جعلوا القياس المصدر الرابع للتشريع. والقياس استدلال عقلى يقوم على تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع لتشابه بينهما فى العلة. ويعتمد على تحليل العلة فى النص عن طريق التفسير اللغوى والعقلى له ثم البحث عن

العلة فى الفرع عن طريق الاستدلال التجريبى. كما أقر ابن تيمية بموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، وأن مالا دليل عليه يجب نفيه، وأن وجود الشئ هو البرهنة عليه.

واستمر العقل فى باقى العلوم مثل علم التفسير فى التفسير بالمعقول فى مقابل التفسير بالمأثور كما فعل الزمخشرى فى "الكشاف"، وفى علم السيرة عند كتّاب السيرة المحدثين مثل طه حسين فى "على هامش السيرة"، ومحمد حسين هيكل فى "حياة محمد" وفى "فى منزل الوحى"، وعبد الرحمن الشرقاوى فى "محمد رسول الحرية"، والعقاد فى "عبقرية محمد" وخالد محمد خالد فى "محمد". وفى علوم اللغة اعتمد البصريون على العقل فى القياس اللغوى. فلا توجد حضارة قامت على العقل وعظمته كما فعلت الحضارة الإسلامية. ففيما الخلاف بين العقل كقيمة إسلامية وبين شعار العلمانية عن العقل والعقلانية والتنوير إلا فى المصدر، الموروث أو الوافد.

كما ترفع العلمانية شعار "العلم" وتعنى بالعلم العالم الطبيعى وتطبيقاته فى التقنية أكثر مما تعنى الرؤية العلمية للعالم. بل ويقصر الشعار على العلم التجريبى فى مقابل العلم الدينى أو الميتافيزيقى أو حتى العقل مما سبب أزمة فى العلم، وشكا فيه كقيمة معرفية.

ولا تُوجد حضارة قامت على العلم كما قامت الحضارة الإسلامية. بل إن آلاف المخطوطات التى لم تنشر بعد وفى عصر ما قبل الطباعة، مازلنا غير قادرين على نشرها، ونعيش عليها وربما أقل إبداعا منها. روح الحضارة الإسلامية روح العلم. فلم يتوقف ابن رشد عن القراءة والكتابة طيلة حياته، وكما تروى الآثار، إلا ليلتين : ليلة وفاة أبيه وليلة البناء على أهله. ومات الجاحظ بعد أن وقعت مكتبته عليه كما تخبر الروايات. ووقت احتضار البيرونى ظل يرسم بأصبعه دوائر وخطوطا فى الهواء، فأن يموت عالما بمسألة رياضية خير من أن يموت جاهلا بها!

وقد ذكر لفظ العلم ومشتقاته فى القرآن الكريم حوالى ثمانمائة مرة أى ست عشرة مرة أكثر من العقل. فالعلم أول صفة للذات الإلهية، وأول فعل ادراك للذات الإنسانية. وأحاديث فضل العلم لاحصر لها. بل إن كل كتب الحديث تبدأ بكتاب العلم وبكتاب الإيمان. وكل علم من العلوم الإسلامية يبدأ بفضل العلم كما هو الحال فى "إحياء علوم الدين" للغزالى. وعشرات الكتب تتحدث عن "بيان العلم وفضله". وساعة علم خير من عبادة الله سبعين سنة كما تروى الآثار. والعلماء ورثة الأنبياء. ويمدح القرآن ﴿الراسخون فى العلم﴾. والعلم قار فى صدور العلماء. لاينتزعه الله مباشرة إنما ينتهى بانقضاء العلماء.

ويبدأ علم أصول الدين بوضع أصول للعلم قبل الحديث عن قواعد الإيمان. فالحديث عن العلم يسبق الحديث عن المعلوم. والسؤال: كيف أعلم؟ سابق على سؤال: ماذا أعلم؟ والعلم فطرى ومكتسب، بديهى واستدلالى، عقلى وحسى، وجدانى ونظرى، داخلى وخارجى. وكذلك يضع علم أصول الفقه مقدماته الأولى فى منطق الاستدلال ومنطق اللغة. فالعلم تصور وتصديق، حد وبرهان. كما وضع الفلاسفة أصول العلم المنطقى والعلم الطبيعى والعلم الإلهى. وسموها حكمة. فالعلم أحد أبعاد الوعى بالحقيقة. والعالم هو الفيلسوف. بل إن الصوفية أيضا وضعوا قواعد العلم اللدنى القائم على الكشف والإلهام، والمعاينة والمشافهة، من علم اليقين إلى حق اليقين إلى عين اليقين.

ولم يكتف القدماء بالعلم الدينى وعلوم اللغة بل انتقلوا منه إلى العلم الرياضى والعلم الطبيعى وعلوم الجغرافيا والتاريخ. ولا يوجد إبداع فى العلوم الرياضية كما أبدع العرب القدماء إضافة على إبداعات الصين والهند وفارس واليونان. وتضم العلوم الرياضية الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، الكاشانى فى الحساب، وابن الهيثم فى الهندسة، والبيرونى فى الفلك، والفارابى فى الموسيقى. وجعل إخوان الصفا قسما بأكمله من رسائلهم فى المنطق والرياضة.

ويضم العلم الطبيعى الكيمياء والطبيعة والطب والصيدلة والنبات والحيوان، الكيمياء عند جابر بن حيان، والطبيعة عند أبى بكر الرازى والكندى، والطب عند ابن سينا وابن رشد والرازى، والصيدلة عند ابن البيطار، والحيوان عند الدميرى.

كما أن إبداعات القدماء فى علوم الجغرافيا الطبيعية والبشرية ووصف طبقات الأرض والخرائط عند الإسطرخى والإدريسى، ظلت قائمة حتى الكشوف الجغرافية الحديثة فى الغرب. أما علوم التاريخ والتدقيق فى الرواية وكشف أخطاء المؤرخين فقد وضعها القدماء سواء فى الحوليات أو الطبقات أو فى فلسفة التاريخ كما بدت عند ابن خلدون.

فإذا كان شعارا العلمانية، العقل والعلم، قد تم تحقيقها فى الثقافة العربية وفى التراث الإسلامى ففيما الخلاف بين الشعارات العلمانية ومضامينها التراثية؟ ولماذا فصل العلوم الدينية والإنسانية عن مفهوم العلم الشامل وقصره على العلم الطبيعى كما هو الحال فى الغرب؟ لقد خرجت العلوم الرياضية والطبيعية من ثنايا العلوم الدينية واللغوية. الحساب لمعرفة الشهور والأيام ومواقيت الحج وقوانين الميراث، والفلك لمعرفة أوقات الصلاة، والهندسة لمعرفة بناء القبلة والمساجد وعمارة الأرض، والموسيقى مرتبطة بأوزان الشعر وبموسيقى القرآن. كما ارتبطت العلوم الطبيعية بحاجات المسلمين وتوجيه القرآن العقل نحو النظر فى الطبيعة والتدبر فى آيات الخلق. فالآية نص وظاهرة، لفظ وشئ. وقد سخر الله الطبيعة لصالح البشر، وعليهم سبر أغوارها ومعرفة قوانينها. الطب لعلاج المصابين فى الفتوحات، والكيمياء لصناعة السلاح، والنبات لصناعة الأدوية، والحيوان لإطعام الجنود. وكانت الرؤية الإنسانية الشاملة للعلم تحفظ العلوم الطبيعية من الوقوع فى النظرة المادية للعلم الطبيعى أو الصورية للعلم الرياضى وكما وضح ذلك فى علوم الحكمة ورسائل إخوان الصفا. وكان تصنيف العلوم فى تراثنا القديم يضع العلوم كلها فى منظومة شاملة كما فعل الفارابى فى إحصاء العلوم بادئا بعلوم اللسان ثم العلوم الرياضية ثم المنطق ثم العلم الطبيعى والإلهى ثم علوم الفقه والكلام والعلم المدنى، لافرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الإلهية، ولافرق بين العلوم الفقهية والعلوم

الاجتماعية، كما صنفها ابن سينا فى العلم النظرى، الرياضية والطبيعة والمنطق، والعلم العملى، الأخلاق والسياسة والاقتصاد، لافرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية.

فلماذا ترفع العلمانية شعار العلم بمعنى العلم الطبيعى وفصله عن باقى منظومة العلوم كما فعل القدماء؟

وهل تقليد الغرب أولى من إحياء القدماء؟

٤- الشعارات العلمانية (٢)

إذا كانت العلمانية ترفع شعار "العقل" و "العلم" فإنها أيضا ترفع شعار "الحرية" و "الإنسان"، فإلى أى حد هذان الشعاران الأخيران خاصان بالعلمانية وحدها أم أنها شعارات إنسانية عامة موجودة فى كل ثقافة حتى لو اختلفت الألفاظ؟

إن نقد العلمانية الدائم للثقافة الإسلامية والتراث القديم هو أن مفهوم الحرية لم يرد فيه إلا فى مقابل "العبودية". ومن ثم غاب مفهوم الحرية من ثقافتنا الإسلامية فى حين أبدعته الحضارة الغربية، وناضلت من أجله منذ محاكم التفتيش حتى انتصاره فى الثورة الفرنسية فى شعاراتها الثلاثة: الحرية، والإخاء، والمساواة.

والحقيقة أن هذا النقد يخلط بين اللفظ والمعنى، بين الشكل والمضمون. فبالرغم من عدم ظهور لفظ "الحرية" الا فى مقابل "العبودية" فى الفقه القديم، الحر فى مقابل العبد إلا أن مدلوله يظل واردا، عدم جواز استعباد الإنسان للإنسان. فحرية الوجود الإنسانى سابقة على حرية الاختيار فى الأفعال. فالوجود أعم وأشمل من الاختيار. وقد أتى الإسلام لتحرير العبيد فى عصر كانت العبودية فيه نظاما اجتماعيا وسياسيا عند الفرس والرومان. وأراد الإسلام نزع العبودية من الشعور، بتقرير المساواة بين البشر جميعا فى الإيمان والشهادة والأخوة وعدم التفاضل. والعلم وسيلة للتحرر إذ لا يجوز استرقاق من يعرف القراءة والكتابة وأصبح فى أول طريق العلم. ولا يجوز استرقاق الأمة بعد أن تحمل وتلد. فالحرية شرط لتعليم الأطفال، حرية الأمهات ضرورة لتربية الأبناء. وإذا ما اقترف الحر ذنبا عليه تحرير رقبة، ذنبا بذنب، ولا يكفر عن ذنب ألا رفع ذنب. والأغنياء الذين يكنزون المال عليهم شراء العبيد لتحريرهم. فحرية الإنسان أولى من كنوز الأرض. فالحرية بهذا المعنى تحرر للإنسان، وعلامة على طريق تحرير الإنسانية كلها من

البيان ١٩٩٦/٤/٢٩.

نظام الرق الذى ظل موجودا حتى القرن الماضى فى الحرب الأهلية الأمريكيـة. وما زال استرقاق الشعوب قائما فيما تبقى من استعمار، واسترقاق الأجراء فيمـا تبقى من نظم.

ثم ظهرت حرية الاختيار فى علم أصول الدين فـى تراثنـا القديم خاصـة فـى التراث الاعتزالى فى خلق الأفعال. فبعد التوحيد، تفرد الله بالذات والصفـات، يثبت العدل وهو حرية الإنسان وعقله. فالإنسان يتم إثباته من خلال التوحيد بفعل حر، "أنا حر فأنا إذن موجود" فى مقابل الكوجيتو الديكارتى "أنا مفكر فأنا إذن موجود". وجود الإنسان فى تراثنا الإسلامى يثبت بالحرية فى حين أن وجـوده فـى الـتراث الغربـى يثبت بالفكر. ولما كانت الحرية فى حاجة إلى سند عقلى للاختيار بين الخير والشر، والتمييز بين الحسن والقبح أتى العقل سندا للحرية. لذلك كان الإنسان عنـد المعتزلـة حرا عاقلا مسؤولا.

وفى الفلسفة فى تراثنا القديم التى هى تطوير للاعتزال وإعمال العقـل تـأكدت الحريـة الإنسـانية فـى إطـار الضـرورة الكونيـة والحتميـة التاريخيـة. فهنـاك قوانيـن طبيعية مستقلة عن الإنسان. وهى القوانين التى يحاول العلم الطبيعى معرفتها. وهـى سنن الله فى الكون والتى جعلته يخضع لنظام متقن لاخلل فيه، ولا فوضـى تعتريـه. والتاريخ مثل الطبيعة يخضع لقوانين حتمية أشبه بقوانيـن الأخـلاق التـى وراء قيـام الأمم والشعوب وانهيارها فى حالة التمسك بها أو التخلى عنهـا. فالحريـة تتـم وسـط الضرورة وليس ضدها أو معها. وهو نفس التصور الذى ظهر عند اسبينوزا وهيجل وكورنو فى الفلسفة الغربية.

وفى التصوف ظهرت الحرية باعتبارهـا تحـررا مـن قهـر العـالم والمجتمـع، حرية الداخل قبل حرية الخـارج، وحريـة الفـرد قبـل حريـة المجتمـع. وهـو المعنـى القرآنى لمصطلح العبودية لله وليس لأحد سواه، التحرر من سلطان البشر والعبودية للـه وحـده. وشـهادة "لا إلـه إلا اللـه" تحمـل أكـبر قـدر ممكـن مـن الحريـة والتحـرر

فالشهادة إعلان دون كتمان، وتصريح دون تلميح حتى لو أدت الشهادة باللسان إلى شهادة بالفعل وأصبح الشاهد شهيدا.

وتتضمن الشهادة فعلين، إيجابي وسلبي. السلبي في "لا إله" أي نفي كل آلهة العصر المزيفة، المال، والجاه، والسلطة، والشهرة، والمنصب، والإغراء، والغرور... الخ حتى يطهر القلب من كل قيد، ويُبعد الإنسان عن نفسه كل خوف وتقية وكل ازدواجية، يُظهر غير ما يبطن، ويبطن غير ما يظهر والإيجابي في "إلا الله" أي إثبات الله الواحد الحق الذي يتساوى أمامه الجميع بلا تفاوت بين الناس لعرق أو لون أو طائفة أو قبيلة أو عشيرة.

وهذا أيضا هو شعار "الله اكبر"، شعار يُرفع على كل من طغى وتكبّر، وأراد أن يساوي نفسه بالله في الغلبة والسلطان. فالله أكبر من كل من يطغى ويتجبر حفاظا على حرية البشر، والمساواة بين الناس. وهذه الحرية للجميع والمساواة أساس المباهلة ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾ (٣ : ٦٤).

فكيف تقتصر الحرية على الثقافة الغربية وتخلو منها الثقافة الإسلامية؟ اللفظ موجود، والمعنى متضمن في ألفاظ أخرى. فلماذا لا تحاول العلمانية أن تأخذ موقفا نقديا من الغرب دون تقليده؟ لماذا ترفض تقليد القدماء وتقع في تقليد المحدثين؟ لماذا لا تجتهد في البحث عن الحرية، تلك الضرورة للعصر، سواء في تراثنا القديم أو في التراث الغربي دون رفض لأحدهما وتقليد للآخر؟

وبالرغم من التصاق الحرية بالفكر الغربي منذ ديكارت حتى سارتر حتى أصبحت الليبرالية عنوانا له إلا إنها ارتبطت بالفردية دون النظر إلى حرية الآخرين ومصلحة الجماعة أحيانا. كما غابت عنها القيم نظرا لأنها قيمة في ذاتها، وقيمة مطلقة ترفض أن تكون لها مراعاة لمنظومة قيم أخرى أعلى منها احتراما للآخرين أو للطبيعة. لذلك أدت أحيانا إلى الاستغلال والاحتكار كما وضح في النظم

الرأسمالية وإلى الحروب باسم التفوق العنصرى. كما أدت إلى تلوث البيئة دون احترام للطبيعة وحرية الأحياء. لذلك أصبحت حرية عادمة.

والشعار الثانى للعلمانية شعار "الإنسان" الذى بدأت به العصور الحديثة فى الغرب باسم "النزعة الإنسانية" عند أراسموس فى القرن السادس عشر وحتى الوجودية باعتبارها فلسفة إنسانية فى القرن العشرين. وأذاعت الحضارة الغربية من خلال سيطرتها على أجهزة الإعلام أنها هى الحضارة الإنسانية الوحيدة، وأنها هى التى صاغت "الإعلان العالمى لحقوق الإنسان والمواطن" فى حين عرفت الحضارات اللاغربية حقوق الله وحقوق السلطان.

والحقيقة أنه لا توجد حضارة إلا وبها نزعة إنسانية سواء فى الصين أو الهند أو فارس أو حضارات ما بين النهرين سواء باللفظ أو بالمعنى. كونفوشيوس، وبوذا، وزرادشت، وحمورابى، مفكرين وقادة، فلاسفة ومشرعين، كلهم قصدوا الإنسان كغاية للفكر والتشريع.

والحضارة الإسلامية ليست بدعا فى ذلك. فقد ذكر القرآن الكريم الإنسان حوالى خمسا وستين مرة للإشارة إلى خلق الإنسان، وتكوينه النفسى، والتحذير من أعدائه الذين ينكرونه، ومسؤوليته والأمانة التى حملها ورفضتها الأرض والسموات والجبال، وكما له وبره وتكريمه فى السموات والأرض.

وقد ظهر الإنسان والتاريخ محورين أساسيين فى علم أصول الدين، الإنسان الكامل فى التوحيد، الذات والصفات والأفعال والأسماء، وقيم العلم والقدرة والحياة وما تدل عليه الأسماء الإلهية من مثل عليا إنسانية. كما ظهر الإنسان فى العدل، الإنسان المتعين بالعقل والإرادة.

وظهر الإنسان العامل فى علم أصول الفقه، الإنسان بأفعاله الضرورية الإيجابية والسلبية فى الفرض والحرام، والاختيارية فى المندوب والمكروه والحرة الطبيعية فى المباح. وهو الإنسان الفاعل فى الدنيا كوسيلة لتحقيق الشريعة على الأرض. وهذه الشريعة نفسها لها مقاصد إنسانية عامة، الحياة (النفس)، والعقل،

والحقيقة (الدين)، والعرض، والثروة (المال). فالإسلام له أيضا إعلانه العالمى عن حقوق الإنسان، وأكمله نضالنا بإعلان ثان عن حقوق الشعوب فى الحرية والاستقلال.

كما ظهر الإنسان فى علوم الحكمة خاصة عند الفارابى، الإنسان العاقل الفاضل السعيد الذى يعرف الحق ويعمل به. وهو الحامل للفضائل مثل الحكمة والعدالة والعفة كما وضح ذلك عند مسكويه. وهو المواطن فى أمة، الفرد فى مجتمع، حكيم البشرية.

وظهر فى التصوف، الإنسان الوجدانى العاطفى الذى ينفعل بالحق ويخلص له، بين الإقدام والإحجام، التقدم والنكوص، الحركة الدائبة نحو الكمال ليتحقق بمثل الإنسان الكامل، شيخا أو مريدا، قطبا أو بدلا.

فلماذا تقصر العلمانية قيمة الإنسان عليها وحدها، تقليدا للغرب، ولا تحفر فى التراث القديم لعلها تجد ما تحتاجه، فتحدث التغير من خلال التواصل وليس الانقطاع؟ ولماذا يتم تقليد النزعة الإنسانية فى الغرب، والإنسان فى الغرب هو الإنسان الفردى، مقياس كل شئ؟ وهى قيمة نسبية، ومن ثم انتهى إلى الشك واللاأدرية والعدمية. لماذا الازدواجية فى القيم الإنسانية، تُطبق داخل الغرب، وتُخرق خارجه؟ فالحرية والإنسانية للغربى، ولغير الغربى العبودية والقضاء على الإنسان الأفريقى الآسيوى الأمريكى اللاتينى.

إن استئثار العلمانية بقيمتى الحرية والإنسانية نوع من الغرور الغربى من داخله والتبعية له من خارجه، وظلم لباقى ثقافات الشعوب وحضارات الأمم. واتهام الثقافة الإسلامية بأنها لم تعرف إلا العبودية والألوهية كما أوضح المودودى فى "المصطلحات الأربعة فى القرآن الكريم" مع الربوبية والحاكمية لرؤية الحقيقة من جانب واحد، الإلهية لنا، والإنسانية للغرب. الإلهية دون الإنسانية وقوع فى القهر. والإنسانية دون الإلهية وقوع فى النسبية. الإنسان هو القصد، والألوهية هى التى تحفظ للإنسان شموله وعمومه بحيث يكون ممثلا للإنسانية جمعاء.

٥- الشعارات العلمانية (٣)

وإذا كانت العلمانية قد رفعت شعارات "العقل" و "والعلم" و "الإنسان" و"الحرية" فإنها رفعت أيضا شعارىْ "المجتمع" و "التقدم"، وكلها تجعل مُثُلُ التنويرُ مثلاً علمانية صرفة، لا يشاركها فيها أحد من التيارات الفكرية الأخرى خاصة ولو كانت متصلة بالدين لأنها شعارات أتت مناهضة للدين طبقا لتجربة الغرب مع المسيحية الغربية فى مطلع العصور الحديثة، الإصلاح الدينى وعصر النهضة.

ويتضمن شعار "المجتمع" عدة شعارات أخرى مثل المساواة، والعدالة الاجتماعية من الناحية الاقتصادية، والديموقراطية والعقد الاجتماعى من الناحية السياسية، والقانون الوضعى وحقوق الإنسان من الناحية القانونية.

ومنذ مبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة الشهيرة، بدا شعارا الإخاء والمساواة على أساس أنهما بناء اجتماعى جديد يرفض اللامساواة والتفاوت الطبقى كما كان الحال فى المجتمع الإقطاعى. ولكن تشكيل المجتمع الرأسمالى فى القرن التاسع عشر القائم على الربح أدى إلى ظهور الإيديولوجيات الاشتراكية الطوباوية والأخلاقية والدينية والعلمية دفاعا عن الاشتراكية والعدالة الاجتماعية. بل إن المجتمعات الرأسمالية ذاتها تبنت كثيرا من المبادئ الاشتراكية لتحقيق المساواة بين المواطنين مثل قوانين العمل والتكافل الاجتماعى والضمان الاجتماعى والتأمين ضد البطالة والعجز والشيخوخة إلى آخر ما هو معروف باسم الاشتراكية الاسكندنافية. وقامت ثورات اشتراكية كبرى فى الغرب مثل ثورة ١٩١٧ فى روسيا دفاعا عن شعارى المساواة والعدالة الاجتماعية.

والسؤال الآن: لماذا يقتصر هذا الشعار على العلمانية وحدها؟ ألا يوجد فى كل ثقافة غربية أو شرقية، تقليدية أو علمانية؟ فإذا أخذنا التراث الإسلامى نموذجا ألم تظهر قيم المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن الاجتماعى فى ثناياه؟ وماذا

البيان ١٩٩٦/٥/٦.

عن الأحاديث النبوية الكثيرة فى ذلك مثل "الناس سواسية كأسنان المشط"، و"أنا شهيد على أن عباد الله إخوانا"، "ليس منا من بات شبعان وجاره طاو"، وكل الأدبيات التى برزت فى الستينات عن الإسلام والاشتراكية سواء نصوص القرآن أو الأحاديث أو نظريات الاستخلاف والعلاقة بين العمل والقيمة، والملكية العامة لوسائل الإنتاج التى تمس الصالح العام مثل الماء والكلأ والنار بالعقلية الصحراوية أى الزراعة والصناعة بالمعنى الحديث؟ وقد برزت عند المصلحين المحدثين أقاويل عمر وأبى ذر الغفارى مثل "عجبت لرجل لا يجد قوت يومه ولا يخرج للناس شاهرا سيفه" أو "والله لوكان الفقر رجلا لقتلته"، وزيادة الأفغانى "عجبت لك أيها الفلاح تشق الأرض بفأسك ولا تشق قلب ظالمك". فلماذا تقتصر شعارات المساواة والإخاء والعدالة الاجتماعية على العلمانية الغربية وحدها إلا تقليدا للغرب ونسيانا للتراث؟

كما يتضمن شعار المجتمع العلمانى شعارى "العقد الاجتماعى" "والديمقراطية" بالمعنى الغربى. فالإنسان مواطن فى مجتمع، والمجتمع مجتمع المواطنين، وليس قِنّا عند إقطاعى أو من رعية عند ملك أو مؤمن فى كنيسة. ويرتبط الإنسان بغيره عن طريق عقد اجتماعى يخول به جزءا من سلطته إلى ممثل لمجموع المواطنين لتحقيق مصالح المجموع طبقا لمبدأ الانتخاب الحر، وأولوية الإرادة الجماعية على الإرادة الخاصة.

فلماذا يقتصر هذان الشعاران على العلمانية وحدها كما وردت من الغرب فى الفكر العربى الحديث، والإصلاح الدينى مازال يجدد ويجتهد لتحقيق غايات الأمة ابتداء من موروثها الثقافى تحقيقا للتغير من خلال التواصل وليس تقليدا للغير من خلال الانقطاع؟ ألم ينص القرآن على الشورى؟ ألم يحّذر الحديث من التسلط والاستئثار بالرأى، "لا خاب من استشار"؟ لقد جعل علماء الأصول الإمامة عقداً وبيعة واختياراً. فإمام المسلمين ممثل لهم فى مصالحهم وليس ممثلا عن الله أو

نائبا أو خليفة له. والخروج على الإمام الظالم واجب شرعى لأن الإمام خرق العقد من طرفه بظلمه، ولم يستمع إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا إلى النصيحة.

ويتضمن شعار المجتمع مفهوم "القانون الوضعى" فى مقابل الشريعة الإلهية، الإرادة العامة فى مقابل الإرادة الإلهية. وقد كانت هذه تجربة الغرب عندما جعلت الكنيسة نفسها ممثلة للإرادة الإلهية ولم تراع مصلحة الناس. فثار الناس عليها واضعين الإرادة الجماعية التى تعبر عن مصالحهم ضد الإرادة الإلهية الممثلة فى الكنيسة. وأصبح القانون الوضعى الذى يعبر عن القانون الطبيعى الذى يعبر بدوره عن حقوق الإنسان الطبيعية هو أساس القانون والدستور فى المجتمع.

فلماذا يقتصر هذا الشعار "القانون الوضعى" على العلمانية الغربية وحدها؟ إن الشريعة الإسلامية كما قال الشاطبى فى "الموافقات" شريعة وضعية تقوم على رعاية الضروريات الخمس: الحياة (النفس)، والعقل، والدين، والمال، والعرض، وهى حقوق الإنسان والمجتمع بالمعنى الحديث. والشريعة الإسلامية فطرية تتفق مع القدرة والأهلية، ليس فيها التكليف بما لا يطاق، وترفع الحرج، والضرورات فيها تبيح المحظورات. وهذه حكمة الشارع. لذلك يمكن استنباطها من العقل والمصلحة. العقل أساس القياس والمصلحة أساس التشريع.

وأخيرا ترفع العلمانية شعار "التقدم"، وتجعل ما سواه من دعاة التخلف والعودة إلى الوراء. وتفخر العلمانية الغربية بأنها أنجبت للعالم مفهومين أساسيين فى العصر الحديث، الإنسان والتقدم.

لقد حول هردر العناية الإلهية من كونها صفة لله كى تصبح قانونا للتاريخ فى القرن الثامن عشر، وأصبح بذلك مؤسس فلسفة التاريخ. وظهر التقدم محور التاريخ وقانون تطوره، من الدين إلى العلم، ومن الخرافة إلى العقل، ومن السماء إلى الأرض فى إيقاع ثنائى، أو من الدين إلى الميتافيزيقا إلى العلم، ومن الآلهة إلى الأبطال إلى الإنسان، أو من الشرق إلى اليونان إلى الغرب فى إيقاع ثلاثى. وهو

تقدم في العقل والوعى أى فى الروح. وفى نفس الوقت هو تقدم فى العلم ومعرفة العالم الخارجى. وهو ثالثا تقدم فى المجتمع من العبودية إلى الحرية، ومن الثيوقراطية إلى الديموقراطية، ومن حقوق الله إلى حقوق الإنسان.

فلماذا يقتصر شعار "التقدم" على العلمانية الغربية وحدها؟ أليس التقدم جوهر كل تاريخ، ومسار كل حضارة، فقد تحول الدين من السماء إلى الأرض ومن الله إلى الإنسان فى التراث الشرقى القديم، فى الصين من ديانات الصين القديم إلى كونفوشيوس ولاوتزى، وفى الهند من الهندوكية إلى البوذية، وعند اليونان من الأساطير إلى الفلسفة، وفى حضارات ما بين النهرين من الآلهة إلى قوانين حمورابى.

وقد عبر الإسلام عن جوهر التقدم بإعلانه نهاية تطور الوحى وختم النبوة من آدم حتى محمد مرورا باليهودية والمسيحية. وختم الرسالة يعنى أن الإنسان أصبح مستقلا عقلا وإرادة، قادراً على الفهم السليم والفعل الحر. فالوحى فى جوهره قد ساهم فى تقدم البشرية وساعدها فى نضالها ضد الظلم والطغيان والتسلط والاستغلال حتى إعلان "لا إله إلا الله"، حرية البشر ومساواتهم جميعا أمام مبدأ واحد. كما ظهر فى العقائد مفهوم التقدم ليس فقط فى النبوة بل أيضا فى المعاد، واستعداد الإنسان للمستقبل وحياته فى الآخرة بعد الحياة الدنيا. كما ظهر فى عقائد المهدى وظهوره آخر الزمان حتى تمتلئ الأرض عدلاً كما ملئت جورا. وظهر التقدم فى مصادر الشرع الأربعة: القرآن، والسنة، والإجماع، والاجتهاد. المصدران الأولان منقطعان أما المصدران الأخيران فمتصلان ومتواصلان حتى يوم الدين، إجماع كل عصر واجتهاد كل مجتهد. والله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. كما عبر الصوفية عن الاتقاء الروحى، والتقدم الخلقى. وحول ابن عربى ذلك إلى تجليات فى التاريخ، خطوة خطوة، من البداية إلى النهاية

فى "فصوص الحكم". بل إن القرآن يشير صراحة إلى السباق والتنافس فى الخير ﴿فالسابقون السابقون﴾ (٥٦ : ١٠)، ويستعمل لفظ التقدم فى ﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾ (٧٤ : ٣٧). وقد حاول الفكر العربى الحديث إبراز مفهوم التقدم فى سؤال شكيب أرسلان" لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟" كما حاول الأفغانى وضع فلسفة للتاريخ تعيد وضع المسليمن فى مساره. وحاول تلميذه أديب إسحق صياغة فلسفة فى التقدم، ومحمد عبده فى آخر "رسالة التوحيد" يُبين كيف انتشر الإسلام بسرعة لم يشهد لها التاريخ من قبل. فلماذا يقتصر شعار التقدم على العلمانية وحدها؟

إن مفهوم العودة إلى الوراء فى الزمن الماضى هو أحد المفاهيم الموروثة بالفعل التى تجعل التاريخ متناقصا فى الكمال جيلا وراء جيل، وتجعل العصر الذهبى إلى الوراء وليس إلى الإمام، وأن الإيمان يتناقص مع الزمن. ولكن هذا التصور كان باستمرار تصور السلطة السياسية دفاعا عن نفسها ضد المعارضة. أما تصور المعارضة للتاريخ فكان يجعل المستقبل خيرا من الماضى، وأن العدل سينتصر على الظلم مهما طال الزمن.

هذه الشعارات العلمانية أيضا ليست خالية من العيوب إذا كانت وافدة من الغرب. فلم تمنع من وقوعه فى أبشع أنواع الاستغلال واقتصاد السوق القائم على الربح بالرغم من رفع شعار المساواة والعدالة الاجتماعية. ولم تمنع شعارات الديموقراطية والعقد الاجتماعى من ظهور النازية والفاشية والعنصرية ونظم التسلط والتحايل على القانون وتغييره طبقا لموازين القوى وتبدل المصالح. كما انتهى مفهوم التقدم المطلق إلى نكوص وإفلاس وتشاؤم والرغبة فى العودة إلى الوراء ونمط الحياة البدائية البسيطة الساذجة فى الفن والفكر وأساليب الحياة العامة. فقد حصل الغربى على التقدم ولكنه لم يحصل على السعادة. وكانت نهاية التقدم الانتحار واليأس والضياع والحرب وانتهاك حقوق الإنسان والتصنت على حياته الخاصة باسم التقدم فى المعلومات.

إن الفكر العربى فى مرحلته الراهنة فى حاجة إلى نظرة نقدية لهذه الشعارات العلمانية عن طريق ردها إلى مصادرها ونشأتها فى الغرب كتجربة خاصة لشعب خاص وبيان حدودها إذا ما انتقلت إلى غيرها من الثقافات. كما يحتاج الفكر العربى إلى أن يؤصل احتياجاته وغاياته فى موروثة الثقافى لعله يستطيع أن يحقق التغير من خلال التواصل، وأن يبدع مرتين فى نقد الثقافة الوافدة ونقد الثقافة الموروثة بدلا من أن يقلد الوافد ويرفض الموروث.